www.kotobarabia.com

مسرحية

صورة جانبية لكاتب لم يكتب شيئا

www.kotobarabia.com

أحمد ابراهيم الفقيه

مسرحية

صورة جانبية لكاتب لم يكتب شيئًا

أحمد إبراهيم الفقيه

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

هذه المسرحية

تنتمى هذه المسرحية إلى ذلك النوع من المسرح الذى يسمى "المسرح الفردى " والذى يكتب ليقوم بادائه ممثل واحد. واذا عرفنا أن المسرح فن يقوم على الحوار، باعتباره أهم الأسس والشروط التى يتحقق بها البناء الدرامى للنص، أدركنا حجم التحدى الذى يواجه مثل هذه النصوص الفردية. إنها وأن كانت صوتا واحدا، فإن هذا الصوت يجب أن يكون قادرا على احتواء أصوات متعددة، متباينة، تقدم الاطروحة ونقيضها فى ذات الوقت، إن الحوار، حتى وإن غاب بشكله التقليدى ، فهو لا بد أن يكون حاضرا بأشكال فنية أخرى، لكى تستحق المسرحية اسمها وتستكمل شروط انتماءها لهذا الفن، ولا بد أن يتم تطويع هذا النص لكل تقنيات العمل الدرامى القائم على الصراع، وتباين مستويات الاداء، وتنامى الفعل المسرحى وحيويته،وتعدد الأصوات وتعارضها، وهذا ما حرصت عليه وأنا أكتب هذا النص. ولا شك أن المخرج الذى قام بتقديم المسرحية ضمن مهرجان القاهرة الدولى للمسرح التجريبى عام ١٩٩٢،كان واعيا بهذا التعدد، لأنه أخرج المسرحية من إطار المسرح الفردى، وقدمها بعدد من الشخوص الذين كانوا فى

الأصل شخصيات وهمية انتجها ذاكرة ومخيلة بطل العرض، فجاء المخرج يمنحها تجسيدا واقعيا. لم أمن فى الحقيقة مرتاحا لمثل هذا الاجتهاد الذى قدمه الصديق المخرج فرج أبو فاخرة،ولعله أراد أن خفف العبء على بطل العرض الذى كان ممثلا فى بداية مشواره الفنى، ولكن النص فقد بذلك أهم خصائصه، لأنه لم يكتب إلا لكى يراه المشاهد،وقد احتوى كل تلك الشخصيات والأصوات والمستويات المتنوعة للأداء والتعبير فى شخصية واحدة، قادرة على مواجهة التحدى، وتحقيق ذلك الحضور المسرحى، المبهر الساحر، الذى يجعل المتفرج ينسى الممثل الواحد، ويرى لوحة عريضة عامرة بالأضواء والظلال، زاخرة بالمشاعر والانفعالات، تتشابك فوقها العلاقات، وتتصارع مختلف الأنماط والنماذج البشرية.

صورة جانبية لكاتب لم يكتب شيئا

[غرفة مكتب ببيت أحد الكتاب. أرفف تمتلئ بالكتب . طاوله للكتابة. نافذة مفتوحة على الأفق. فى جانب من الغرفة أريكة يتمدد فوقها الكاتب ، وقد غطى وجهه بكتاب سميك. موسيقى هادئة. إضاءة خافتة تنبئ بجو الحلم . يقوم الكاتب

وكأنه يسير فى نومه. ويمشى باتجاه الهاتف الموجود فوق الطاولة. يرن الهاتف فيأخذ الكاتب السماعة]

آلو ، آلو . نعم . أحمد إبراهيم الفقيه. ليس الفقيه الجزار ولا بائع الأحذية ولا صاحب معامل تفريغ الدجاج، وإنما الكاتب. نعم إنه أنا .

أتقول ألعاب سويدية. آسف لا أسمعكم بوضوح. أنت إذن تتكلم من استوكهولم . تقصد أنكم أنتم الأكاديمية السويدية . آه أهلا وسهلا ، أهلا وسهلا . المعذرة فأنا ما زلت نائما.

جائزة نوبل للآداب؟ طبعا أعرف هذه الجائزة جيدا ، هل هناك أحد فى العالم لا يعرف السيد نوبل ؟ المتفجرات ، الديناميت ، السيارات المفخخة ، العبوات الناسفة ، أفضاله على العالم لا حصر لها ، معذرة لنتحدث عن الجائزة ، يؤسفنى أن الشاعر كعبورة لم يفز بها حتى الآن ؟

هل قلت من هو كعبورة ؟ ياله من سؤال غريب ؟ لأن اسمه فى الصحافة العربية لا يذكر إلا مقرونا بهذه الجائزة ، فقد تأخرت عليه كثيرا ، وهو لن يرضى بأن يستمر هذا الظلم .

تسألني أنا إن كنت أقبل الجائزة ؟ جائزة نوبل للآداب؟ طبعا يسعدنى أن أكون الفائز بالجائزة يسعدني ذلك دون شك ،

(ثم بعد تردد) : ولكن ماذا عن الشاعر كعبورة ؟ أريد أن أعرف أن أعرف تحديدا ماذا ستفعلون معه؟ لن يكتفى هذه المرة بالشتائم والتهديد وقصائد الهجاء أو هوه. إنكم لا تعرفون الشاعر كعبورة ، إنه رجل لا أمان له أبدا. قد يفعل أى شيء . يستعين باختراعات السيد نوبل نفسه لتنفيذ تهديداته . هل تقول بأنكم أعلنتم منذ دقائق عن اسمى كفائز بجائزة نوبل للآداب لهذا العام ؟ لا بد أن أختبئ الآن فورا قبل أن يعرف بمكاني. (هامسا) هل أستطيع أن أعرف أين خبأتم سلمان رشدى ؟ أريد حراسا مسلحين يتناوبون على حراستى ليلا ونهارا. يجب أن أذهب الآن .

)طرق قوى على الباب) هناك طرق على الباب. لا شك أنهم القتلة الذين أرسلهم الشاعر كعبورة. الوداع .

)يرمي بالهاتف . يقفز من النافذة هاربا وسط الإضاءة المعتمة . تزداد الإضاءة سطوعا. نرى الكاتب مرة أخرى مستلقيا فوق الأريكة وفوق وجهه الكتاب، يقوم من رقاده وهو يتثاءب (.

)-لا يزال جالسا) اللهم اجعله خيرا. جائزة نوبل للآداب مرة واحدة؟ يا سلام هكذا يجب أن تكون الأحلام (يقلب الكتاب الذي بين يديه) : شكرا لصاحب هذا البحث ، لولاه ما

استطعت أن أنام وأحصل على جائزة نوبل للآداب ، إنه دائما يخصني بعبارات الثناء . (يقرأ بعض الأسطر من الكتاب) وبحثا عن الدلالات والرموز في أدب هذا الكاتب ، ننتقل إلى أحلامه الزائفة المعكوسة التي تفضح رغباته اللاواعية في الهروب من واقعه القميء ، وتعبر عن العوامل الفاعله في عقله الباطن المليء بمشاعر الحقد ضد الأم والرغبة في قتل الأب (يرمى الكتاب جانبا) سامح الله الدكتور الناقد إنه يريد أن يحرمنى حتى من رضار الوالدين بعد أن حرمت من رضاء النقاد والحكام والرقباء والمخبرين ، (يضرب كفا بكف) هيا أيها الخادم. أحضر لى القهوة فورا. لا تنس ثلاث ملاعق من السكر فإنى لن أشربها خالية منه كما يريد هؤلاء الأطباء (لحظة صمت) سأصنع قهوتى بنفسى ، فأنا أنسى أحيانا أننى لا أملك إلا خدما وهميين وشخصيات وهمية وأتعامل مع عالم وهمى لا وجود له إلا فوق الورق. (يضرب بيده الطاولة التى تتكوم فوقها الأوراق)

(يخرج لإعداد القهوة . يتكلم من خارج المسرح وقد اختلطت كلماته بصوت انسكاب الماء فى السخان. (هل انتهت كل المشاكل ولم تبق إلا أوهام جائزة نوبل أعارك أشباح الظلام من أجلها (يظهر على المسرح وفى يده السخان

فيتدارك نفسه قائلا (نسيت أن أضع السخان على النار يخرج ثم يعو أليس من واجب الكاتب أن يؤلف كتبا قبل أن يحلم بالفوز بهذه الجائزة؟ كيف يستقيم الأمر إذن وأنا لا أستطيع أن أكتب ولا أعرف كيف أكتب، أو ماذا أكتب ولا أعرف كيف وجد الأدباء العرب وقتا لكتابة الأدب وهم يشتغلون معلمين فى رياض الأطفال وموظفين فى مخازن الأوقاف وملحقين بمصلحة الموانئ أو المطافئ حتى كبيرهم وحامل رايتهم يوم الحساب الذى فاز بجائزة نوبل لم يتفرغ للأدب إلا بعد أن أحيل على المعاش من وظيفته الإدارية. لم يكن لى اختيار فى اكتساب الموهبة الأدبية. إنها موهبة ولدت معى

(يخرج ويعود بسخان الماء ويسكب الماء فى الفنجان كما يضع القهوة والسكر)

كنت أستطيع أن أسمع السحب وهى تزحف على بطونها فوق حقول السماء، أسمع أنهار الماء التى تجرى فى باطن الأرض تحت أقدامنا، أسمع كلاما تقوله الريح ومواجع تقولها الجبال، فأسجل فوق الورق ما سمعت. هكذا بدأت علاقتى بالكلمات وعوالمها السحرية ، ولكن ماذا أفعل إذا كان الأدب لا يطعم خبزا. أردت أن أقتدى بنجيب محفوظ فاخترت مثله أن أكون موظفا بالأوقاف، أجلس فى مخزن يمتلئ بالغبار

والوثائق القديمة وأنتظر انقضاء الأربعين عاما بسرعة بفرح ، لكى أحال بعدها إلى المعاش وأبدأ حياتى الأدبية. لم أكن أملك مواهب نجيب محفوظ فى الصبر وقوة الاحتمال. أحسست بالاختناق منذ أول يوم . كنت أعمل فى تسجيل الصادر والوارد ، وكان هذا العمل يأكل وقتى وجهدى وأعصابى ويملؤنى إحساسا بالغربة وسط أجواء تلك الوظيفة وأقبيتها وكهوفها وعنكبوتها الذى بدأ ينسج شباكه فوق وجهى منذ اللحظات الأولى . لم أطق صبرا فهربت. تركت المكتب وخرجت أركض وأركض وأركض لكى لا أعود إليه أبدا أبدا أبدا.

لم يكن يهمنى أن أتشرد فوق الأرصفة، مفلسا، جائعا لا أجد ما أشترى به رغيف خبز. لم يكن يهمنى أن ينكرنى أهلى ويهرب منى أصدقائي، وتضيع فرصتى فى الزواج من ابنة العم التى اختارها لى أهلي. قررت أن أقهر عالم العادة والروتين والبشر الملتصقين بالأرض ، وأكسب عالم أولئك الأسلاف العظام الذين غرسوا شجرة الحضارة وسقوها بإبداعهم أدبا وفنا وفكرا، كنت واهما ، أردت أن أصنع سقفا للكون أكثر بهاء، أن أسرق النار من جبال الألمب وأدفئ بها قلوب البشر وبيوتهم أن أرسم فى الأفق قوس قزح كل يوم،

أزرع أمام كل بيت حديقة ورد، أبنى فوق رؤوس الناس خيمة منسوجة من خيوط الضوء والفرح... أكمل ما لم يكملـه أبـو العلاء المعرى عندما قال:

إنى وإن كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائل

كنت أريد أن أؤسس ذوقا، وأبنى وجدانا، وأحقق مقولة أبى الطيب المتنبى الذى أراد أن يرى الأعمى أشعاره ويسـمع الأصم كلماته:

"أنا الذى نظر الأعمى إلى شعرى
وأسمعت كلماتى من به صمم"!

كنت أريد أن أحقق مقولة فولتير :

"وما أهمية أن يكون لى تاج، أليس لى قلم"

كنت واهما واهما واهما - وأردت واهمـا أن أعيـد صياغة اللغة. أحطم قوالبها القديمة. أخرجها من العلب التـى يحفظونها بها، أفتح أمامها أفقا جديدا لا يحده حـد . أردت أن أفعل باللغة العربية ما فعله دانتى باللغة الإيطاليـة. شكسـبير باللغة الإنجليزية. جوته باللغة الألمانية. سيرفانتس بالأسـبانية، هوجو بالفرنسية. أن أشحن مفردات اللغة بالدلالات الجديـدة، بحيث لا تعود القمحة قمحة، وإنما تصبح القمحة حقلا، جـبلا

سربا من القطا ، عرسا من أعراس الحصاد، موسما من مواسم الخصب، ربيعا يأتى فى غير موعده، تصبح القمحة وعدا وبشارة ، لا مجرد حبة فى سنبلة.

أردت أن أقيم المحاكمات للملائكة وآلهة الأولمب، للبشر والشياطين لمخلوقات الأرض والسماء وكائنات الليل والنهار . أن أجلس وأكتب ما لم يكتبه أحد قبلي . أليس هذا هو التحدى الذى تطرحه الكتابة أمام الأديب. أن يقول ما لم يقله أحد، وأن يكتب ما لم يفكر أحد فى كتابته من قبل. أن يستعير دور إله من آلهة الأساطير وهو يكتب روايته أو قصته أو مسرحيته، يخلق بشرا ويرمى بهم فى ميادين الصراع، ثم يبيح لنفسه أن يصنع أقدارهم ويحدد مصائرهم ويصيغ ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم كما يشاء ، يسعدهم أو يشقيهم، يفقرهم أو يغنيهم. يمنعهم أو يعطيهم. يبعدهم أو يدنيهم. يهلكهم أو ينجيهم، يدينهم أو يعفو عنهم، يمنحهم النصر أو الهزيمة ، اللعنة أو المباركة، الموت أو الحياة . إرادة عليا لا حد لجبروتها وقوتها، بهذه الروح جئت إلى ميدان الكتابة الإبداعية. كنت أمنح نفسي برغم الفقر والتشرد مكانة أكبر من مكانة آلهة الأولمب نفسها، لأننى أستطيع أن أكفر بتعليماتها، وأعيد صياغة العالم على طريقتى وأبطل طريقتها، بل أستطيع أن أحاسبها وأحاكمها .

زيوس، يارب الأرباب. هيا اهبط من جبالك اللعينة، وتفضل بالحضور أمامى فورا.

(يهتز الأفق وراء النافذة مع مؤثرات صوتية رمزا إلى وصول زيوس)

-لا تلجأ معى لأساليبك القديمة البالية ، اجلس على هذا الكرسى بأدب وصمت.

لا أريد أن أسمع منك كلمة اعتذار واحدة. كلنا يعرف أنك إله كاذب، مخاتل مخادع، بل إنك إله لا وجود له أصلا، لأنك إله من وهم وأساطير وخرافات ، ومع ذلك سمحت لنفسك بأن تعبث بحياة الناس وتفسد آمالهم وأحلامهم، ومشاريعهم للمستقبل دون أدنى إحساس بالإثم أو الخجل . لا تحاول الانكار أرجوك. اعترف. من الذى جعل أوديب المسكين يقتل أباه ويتزوج أمه ؟ لا تقل إن سوفكليس هو الذى فعل ذلك . سوفكليس لم يفعل أكثر من أنه نقل إلينا ما فعلته أنت بأوديب . إنك أنت المجرم الذى صنع عقدة أوديب وجعل البشر يتوارثونها كأى مرض خبيث جيلا بعد جيل . إنك أنت المجرم الحقيقى ولا أحد غيرك . لا تتكلم أرجوك حان الوقت لأن تدفع ثمن هذه الجريمة . هل أنت حقا نادم على ما فعلت ! ولكن ما الفائدة إنك لن تستطيع تغير الماضي مهما بلغت قدراتك الإلهية

الزائفة. لقد حطمت حياة إنسان شريف ونبيل وشجاع، قتل الوحش الذى يقف على أبواب طيبة، وأنقذ المدينة، فإذا بك تجعل من تضحياته وبطولاته لعبة عبثية من ألاعيبك. وينتهى به المطاف ملعونا، يائسا، مفقوء العينين. هل يرضى هذا ضميرك الإلهي، أيها الإله الكاذب المزيف؟ لا أريد أن أسمع هذه التبريرات عن طبيعة البشر وضعفهم ومطامحهم وأطماعهم فى حين أنك أنت الذى أرسل لعناية وراءهم. هل تظن أننى سأغفر لك ما فعلته بالفتاة الطيبة أنتيجونا، وما أعددته من مصير أسود لأجمنون الذى عاد منتصرا من حروبه فى بحر إيجا ، وما سببته من عذاب لاليكترا وأورست، وفيدرا وأندروماك وغيرهم وغيرهم.

هل تبكى الآن؟

إنك لن تستطيع أن تكتسب عطفى بهذه الدموع. إننى لا أعبأ بدموع الآلهة. هل تستطيع أن تخبرنى من الذى أشعل حربا عبثية مثل حرب طروادة، وجعلها تستمر لمدة مائة عام. مائة عام أيها لإله المتعطش للدم والرعب والخراب. ومن أجل ماذا ؟ من أجل امرأة مخطوفة. لا تقل لى أنه هوميرس. لم يكن ذلك الشاعر الأعمى إلا راوية لما فعلت أنت بالبشر. ما

أشد غفلتك عندما ظننت أنك فوق محاسبتى، أو أن عدالتى لن تطولك مهما تقادم الزمن.

(يترك زيوس جالسا، وينتقل إلى مقدمة المسرح ليسرد ذكرياته)

كنت لا أزال طالبا فى المدرسة الداخلية عندما بدأت الكتابة . وكانوا يطفئون أضواء عنابر النوم مبكرا ، فكنت أقضى جزءا من الليل فى المرحاض أقرأ وأكتب وأغنى . هكذا نمت معى عادة الكتابة فى المراحيض .

لا بد أن الذى أطاق على المرحاض "بيت الأدب"كان أديبا عربيا مثلى لا يجد مكانا يكتب فيه إلا هذا المكان. لم يكن مسموحا لنا السماع أغنيات غير الأغانى الوطنية. وكنت أفرح أحيانا بما كتبت فأغنى لنفسى داخل الحمام النشيد الوطنى الخاص بالمدرسة:

-عليك منى السلام يا أرض أجدادي...
ففيك طاب المقام وطاب إنشادي..
عليك منى السلام..

من هناك؟ يسمعنى الحارس الليلى أغني، فيأتى ليطفئ الأضواء ويطردنى من بيت الأدب.

لم يكن يهمنى كثيرا أن يضطهدنى الحراس الليليون، طالما أننى أستطيع أن اضطهد الآلهة فوق جبالها. كانت الكتابة فى تلك المرحلة المبكرة من العمر بحثا عن تعويض سحرى لبؤس الواقع، أما الآن فقد صرت أبحث عن تعويض سحرى لبؤس الكتابة.(يعود إلى حيث يجلس زيوس) مسكين رب الأرباب إنه لا يستطيع أن ينعم بشيخوخة هادئة فهو ما أن يرتاح قليلا حتى يجدني أستدعيه للتحقيق(يشير إليه أن ينصرف) سأكتفي بهذه الجلسة معك الآن وسأستدعيك في وقت آخر.

(تشير المؤثرات الصوتية إلي خروج زيوس ويصفق الكاتب يطلب الخدم)

ماذا أفعل لهؤلاء الخدم الذين يهملوننى ويتأخرون عن تقديم غذائى فى موعده؟ طبعا، الكاتب الذى يبدأ الكتابة مثلى فى دورات المياه بالمدارس الداخلية لا يستطيع أن يعرف إن كان ما يكتبه أدبا عظيما أو أدبا تافها ولكن باستطاعته أن يطمئن إلى أن هناك بجوار القارئ الذكي، قارئا تافها سيبتهج لدى قراءة أى أدب تافه وسطحي. هل لا بد أن أفعل كل شيء بنفسى أيها الخدم الوهميون الكسالى .

(يخرج ويعود بطبق من السلطة الخضراء)

إذن فالكتابة مغامرة مضمونة العواقب بالنسبة لهذا الجانب. وهى وإن كانت لا تجلب رزقا فإن مكافآتها العظيمة للكتاب أنها تغنيهم عن الحاجة إلى الرزق، فهى والحمد لله تصيب المعدة بكل أنواع القروح وأمراض الأعصاب بحيث لا تستطيع أن تقبل طعاما إلا هذه السلطة الخضراء، وهى طبعا أرخص ما فى السوق. وإذا كانت هناك جوانب أخرى تجعل الكتابة مشيا فوق حقول الأنعام القابلة للانفجار فى أية لحظة، فما ذلك إلا جزء من الإثارة والمغامرة التى تمنحها لنا هذه المهنة. لم نسمع أبدا أن نجارا أو حدادا أو حانوتيا أو مهندسا أو مزارعا أو تاجر مواشى أو أقمشة، قتل لأن أحد الناس لم تعجبه الطريقة التى يعمل بها ذلك النجار أو الحداد أو الحانوتى فهى مهن آ منة، خالية من وهج الإثارة والمغامرة، ولكن الأخبار تتحدث كل يوم عن كاتب تعرض للاعتقال أو الاغتيال أو حكموا عليه بالموت لأنه كتب بطريقة لم تعجب فلانا أو علانا من الناس. لم أكن أعرف ذلك إلا عندما وجدت نفسى فجأة متهما ذات يوم:

(يضع فوق عينيه نظارة سوداء ويتخذ وضعا يوحي بالمكابرة والغرور مع تلوين في الأداء الصوتي)

ما الذى تقصده بالشفق الأحمر الذى جعلته عنوانا لقصتك؟

(ينزع النظارة ويستعيد وضعه الأول وصوته الطبيعي)

بقيت ساهما، لا أدرى ماذا أقول، أسأله فى حيرة:

-من أنت؟ وكيف تسللت إلى داري؟ وكيف سمحت لنفسك بأن تقاضيني، وكأن ما فعلته جريمة وليس إبداعا يضيف جمالا إلى جمال الحياة ولاقيها وبهجتها.

فيرد ساخرا:

(يتخذ مرة أخرى سمت الرقيب بالنظارة وطريقة الحديث والوقوف ويفعل هذا كلما جاء حديث الرقيب ويستعيد وضعه الطبيعي أثناء الرد على الرقيب)

-هل حقا أنت لا تعرفني- لا تعرف الصديق الذى لا يكتفى بالدخول إلى بيتك، وإنما إلى عقلك وقلبك، يسرى فى دمك ويتسلل إلى شرايينك ويقف على أصابعك وأنت تكتب. وها أنت مع ذلك تغافلنى وتضع عنوانا فاقع الاحمرار. لقصتك فقل لى بسرعة ما الذى تقصده بهذا العنوان؟

-لا بد أنك لا تقرأ سوى العناوين، لأنك لو قرأت القصة لعرفت أننى لا أقصد شيئا سوى الشفق الأحمر الذى

نراه لحظة غروب الشمس وغروبها، فنحن لا نستطيع أن نسميه الشفق الأسود أو الشفق الأبيض وإنما الشفق الأحمر.

-أليس هذا الكلام دعوة مفتوحة إلى الثورة الدموية الحمراء التى يبشر بها أمثالك من كتاب المعارضة.

-سامحك الله. ألم تجد تفسيرا غير هذا التفسير الذى يقود مباشرة إلى المقصلة؟

هل تظن أننا لا نستطيع أن نقرأ ما بين السطور؟

-ولماذا أيها الصديق الرقيب، تترك السطور التى كتبتها وتحملني مسئولية المساحة البيضاء التي لم أكتبها؟

لأننا ندرك مقاصدك البعيدة. ألم تكتب واصفا نفسك بأنك قنديل يبحث عن ظلام لضوئه،فما الذي تعنيه بهذا الكلام؟

وما أهمية القنديل بعيدا عن الظلام . نعم عن تلك الجيوب والأركان المظلمة في العقول والقلوب من أجل إنارتها

ومرة أخرى ترى نفسك قاربا يطارد العواصف ما أغرب هذا الكلام

نعم، لأن السفن لم تعد تجرى بما تشتهى الرياح. إنه احتفال بالارادة الإنسانية وهي تصارع قوى الطبيعة وتنتصر عليها

وماذا عن الحب ؟ إنك تكثر من الحديث عنه ، وتسميه طائر الأسطورة كلما أحرقوه انبعث من رماده؟

-نعم، لأنه مهما تعطل الحوار بيننا فإننى أضع رهانى على الحب، وأكتب عن إيمانى بهذه العاطفة التى ستبقى متوهجة فى قلوبنا مهما أسأنا الظن بأنفسنا.

-وهل تظننا نعجز عن تفسير هذه الرموز فلا نعرف من تعنى بالعواطف التى تطارد قواربك. الظلام الذى ينتظر قنديلك. النار التى تحرق طائر حبك.

-إن لك خيالا أوسع من خيال أعظم الكتاب ، فلماذا لا تباشر الكتابة بنفسك ؟ دعنى الآن أفهم ما تريده بالضبط ، هل يرضيك أيها السيد الرقيب أن أمتنع مستقبلا عن الإشارة فى كتاباتى إلى العواصف والظلام والنار والرماد والقوارب والقناديل ، هل هذا ما تريد؟

-هل تريد خداعنا مرة أخرى ؟ هل تحسبنا غافلين عن أساليبكم الجهنمية أيها الكتاب؟ سوف تنتقى بدلا من العواصف والحرائق والظلام رموزا أخرى تستخدمها فى كتاباتك وتكشف بها تأثرك بالأفكار المستوردة والمبادئ الهدامة التى تفسد عقول الشباب.

ألا ترى أنك أسرفت فى توجيه الاتهامات. أرجوك أن تتريث معى قليلا. إننى لن أبلغ منزلة سقراط، ولا أريد مصيرا كمصيره، ولا أن أتجرع سما مثله، لأن ما تقوله الآن هو بالضبط ما قالوه لسقراط قبل أن يحكموا عليه بالموت. أريد منك الآن لائحة بالمواضيع التى تبيح لى أن أكتب عنها والمفردات التى تريدنى أن أستعملها، لكى ألتزم بها فلا أكتب شيئا يثير شبهتك أو شكوكك.

-إن كل ما تكتبونه، ملغوم، مدسوس، فلا تحاول خداعى بهذه الأساليب.

-إذن فالاعتراض ليس على ما أكتب، وإنما على مبدأ الكتابة أساسا، ها نحن الآن على نور. يعجبنى جدا هذا الوضوح. فهل يرضيك يا سيدى الرقيب أن أتوقف نهائيا عن الكتابة. اتفقنا. سوف أبحث منذ هذه اللحظة عن مهنة أخرى. سوف أشتغل صيادا للأسماك. راعيا للأغنام. عتالا فى سوق الحبوب أو حفارا للقبور.، إنها مهنة تليق بالأدباء والفلاسفة ،إن كل من شاهد مسرحية هاملت يعرف أهمية وخطورة هذه المهنة ، تأكد أيها الرقيب بأننى لن أكون آسفا على الانتقال من مهنة الكتابة إلى حفر القبور وحراستها . سأتبرأ من كتاباتى السابقة ، سأنشر إعلانا فى الجرائد بتغيير اسمى ومهنتي.

سيفرح بك أهلى ومعارفى لأنك أعنتنى على ترك هذه المهنة التى يعتبرونها ضربا من العبث والجنون، لأنها المهنة الوحيدة فى الدنيا التى يشقى صاحبها، يكدح ويسهر الليل دون أن ينتظر مقابلا. وإذا جاء المقابل فهو غالبا ما يأتيه بعد أن يموت. أليس هذا هو العبث. والأكثر عبثية من ذلك أننا نقبل ونصبر ونرضى بهذه الحرفة ، وهى لا تريد أن ترضى بنا.

ولكن هذا الكلام يغضب السيد الرقيب أيضا.

-ها هى إحدى الألاعيب الشيطانية التى لا يتقنها إلا الكتاب . الصمت. تهددنا بالصمت . تريد أن تستخدم الصمت سلاحا لإرهابنا. موقف احتجاج ومعارضة. تعبير عن السخط الذى لا تفلح الكلمات فى التعبير عنه. أليس هذا ما تهدف إليه؟ لم تستطع إدانة الحكومة بالكلمات ، فأردت إدانتها بالصمت ، ورقه تهديها للصحافة الأجنبية المعادية التى ستكتب هازئة وساخرة من الأمة العربية لأنها ترغم كتابها على الصمت وتحيلهم إلى المقابر . هل تظن أن هذه الحيلة الرخيصة سوف تنطلى علينا ؟ أقول له حائرا :

-ولكن ماذا تريدنى أن أفعل أكثر من ذلك. هل يرضيك أن أمضى فى الشوارع هاتفا.

تعيش الرقابة، تموت الكتابة

تعيش الرقابة، تموت الكتابة
تعيش الرقابة، تعيش الرقابة، تعيش الرقابة.
(تتغير الإضاءة إشارة إلى أنه عاد بمفرده)

مشكلتى ليست مع الرقيب ، وإنما مع نفسي وميراث القمع والخوف الذى أحمله معى. إنه حقا يسكن فى دمي، ويقيم تحت جلدي، لأننى أنا الذى سمحت له بذلك، فكان طبيعيا أن يواصل إذلالي. كان يجب أن أثور فى وجهه. لا أن أرقص أمامه صائحا، تحيا الرقابة. كان يجب أن أفصد دمي، وأطرده من جسمى قبل أن أطرده من داري، وليحدث بعد ذلك ما يحدث .

كيف أعتبر نفسى كاتبا يهزا بتيجان الملوك ، وينصب المحاكمات لآلهة الشرق والغرب، ثم أقف متخاذلا جبانا أمام هذا الرجل . كيف سيكون موقفى أمام القراء ؟ أمام التاريخ ؟. أمام(... طرق على الباب. يذهب ويفتح الباب)

-أهلا وسهلا. تفظلى أيتها الآنسة (يقدم مقعدا للمرأة الوهمية) أعتقد أننى أعرفك. إنك أنت جميلة بطلة "حقول الرماد" أية ريح مباركة جاءت بك اليوم قهوة؟ عصير برتقال؟ ماذا تشربين؟ (يخرج لإحضار المشروب. يتكلم من خارج المسرح) وكيف حال "قرن الغزال" تلك القرية السيئة الحظ، هل

حقا تقرر إلغاؤها من فوق الخارطة؟ (يدخل، يقدم كأسا من العصير، ويحتفظ بكأس لنفسه) لماذا ترفضين ضيافتي؟ أنت أيضا غير راضية عني. أليس كذلك؟ كان لابد أن أعمل حسابا لموقفى أمام أبطال قصصى قبل أن أسأل نفسى عن موقفى أمام القراء والكتاب. هذا صحيح. ولكن لابد أن أقول لك بأنك إنسانة محظوظة جدا لأن نقادا كثيرين أعجبوا بك ، وتحدثوا عن عمق الصدق وقوة الحياة التى في شخصيتك . آه كدت ان أنسى ، حذرى من كان هنا منذ قليل ؟ إنه السيد الرقيب نفسه ، إنه راض تمام عنك الرضا . لم يجد كلمة واحدة يقولها ضدك .ما رأيك ؟ هل تقولين إن هذا هو ما يغضبك؟ وإنني ظلمتك من أجل إرضاء السيد الرقيب ؟ وهل من العدل أن أحاكم وأسجن بسببك؟ لقد سهرت يا جميلتى وتعذبت وعانيت الأشهر الطوال من أجل خلقك. صنعتك بمثل ما يصنع الخالق أحب الكائنات إلى نفسه. استعرت من ميراث الأساطير وربات الجمال أجمل ما لديهن وصنعت لك هذا الشعر وهذا العنف وهاتين العينين وهذا الأنف وهاتين الشفتين، وهذه الابتسامة التى تفرح لها الملائكة. منحتك عذوبة الصوت وبهجة الحديث وطلاوة الروح، وجعلتك أبهى الكائنات فوق الأرض. فماذا تريدين أن أفعل لك أكثر من ذلك ؟

أتقولين إن هذا الجمال نقمة عليك؟

-نعم. نعم . هذا صحيح.

وإنك ذهبت إلى المدرسة فقاومك الفقهاء وخطباء المساجد وأرسلوا وراءك اللعنات؟

-نعم. نعم. نعم.

-رآك حاكم القرية فأرادك جارية له وأرسل العسس يطاردونك ليلا ونهارا؟

-نعم. نعم. نعم.

-أطعمت طائرا فى ردهة البيت فظنه أهلك عشيقا سريا، وجاءوا يحملون العصى يكسرونها فوق رأسك؟

-نعم. نعم.

خرجت إلى الشارع فهاجمك درويش القرية ، وحاول اغتصابك ؟

نعم . نعم . كل هذا صحيح ، وصحيح أيضا أننى فتحت الكهوف التى ترقد بها كل الهوام والحشرات الخسيسة وأرسلتها لتسحق هذا الجمال وتدوسه وتهلكه . جعلت الجبال تعاديك وأحجار القرية ترجمك ، والأشباح تهاجمك ، وعواصف الرمل تحاول ردمك ، أطلقت البارود فوق رأسك وتحت قدميك ، وأشعلت الحرائق فى البيت الذى تسكنيه ، كل

هذا حدث لك بتدبير منى . إننى لا أذكر ذلك أبدا ، ولكن ليس هذا كل شيء . لماذا تنسين أننى صنعت لك فتى وسيما شهما ونبيلا ، جعلته يحبك ويأتى إلى عونك ويسعى للدفاع عنك ، وإذا كانت القوى الأخرى التى تعمل فى الظلام أكبر منه ومنك ، فليس الذنب يا جميلة ذنبي ، إنه ذنب هذه الأقدار التى تأتى بنا إلى الدنيا دون أن تستشيرنا أو تسألنا رأينا عن الحياة التى نريدها لأنفسنا أو المكان الذى نختاره وطنا لنا . ما ذنبى إذا كانت قرن الغزال هى القرية التى شاء الحظ أن تكون قريتك . نعم ، إننى أنا الذى أصنع قدر أبطالى كما تقولين ، ولكننى محكوم بقوانين المهنة وشروطها التى لا أستطيع الإفلات منها . نعم يا جميلتى العزيزة أعرف ذلك جيدا فقد كنت تريدين الهروب مع الفتى الذى أحبك . هذا صحيح وضعتما الخطة لذلك واتفقتما على الهروب ، نعم إننى أنا الذى أفسد خطة هروبكما وأفشل مشروعكما للخلاص . افهمينى أرجوك ، لم يكن ممكنا أن أجعلك تهربين معه . كفي من قول لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لأنه لا معنى لهذه اللماذا فى مسار حياة البشر . لماذا تحدث الزلازل وتثور البراكين وتحصد الآفات والمجاعات والحوادث حياة الناس ؟ هل تستطيعين الإجابة ؟ تتهمينى بأننى كنت نصيرا للقوى التى حاربتك . إن ذلك ليس صحيحا لم يكن

ما فعلته خوفا من الرقيب أو تواطؤا مع الأقوياء الذين يملكون السلطة والثورة . كنت أكتب واكتب عنك استجابة للحظة الحرية النادرة التى تأتى مع صدق الخلق ومعاناته ، ومع ذلك لم أستطع أن أنقذك . لم أستطع أن أساعدك على الهروب والنجاة . لم أكن قاسيا ساديا أتلذذ بتعذيبك كنت أريد لك النجاة لأن نجاتك هى نجاتى أنا أيضا ، ولكننى لا أستطيع أن أكذب على نفسى . كان الطريق مسدودا أمامنا . قضيتنا واحدة يا جميلة . إنك أنت أنا ، وأنا أنت ، وضعت نفسى فى صورتك في بهاء وجهك وصفاء جيدك وروعة عينيك هذا الجمال هو جمالى أنا أيضا ،

وهذه الروح هى روحى ، إنها روح الخلق والإبداع التى أهدتها لى الملائكة والتى جاءت لتكون تحديا لمعطيات هذه البيئة بقسوتها تخلفها قبحها أشواكها جهلها ظلامها عواصفها روحها المعطوبة والمرتهنة لعصور الارتداد والاستبداد وحكم القراصنة فكيف تريدين لزهرة واحدة مثلك ومثلى تنبت فى قرية تأكلها أملاح الصحراء وتملأها أكداس القبح وتجلدها رياح القبلى أن تبقى مزهرة سليمة من الأذى تعبق بالأريج ؟ لو حدث مثل هذا لكان كذبا على الواقع وكذبا على أنفسنا . أرجوك يا جميلة لا داعى للبكاء . إن بكاءك

يعذبنى لأنك تعرفين إلى أى مدى أحبك وأهيم بك . لقد صنعت لك جمالا يلائم ذوقى ويتفق مع أشواقى ورغباتى . جعلتك امرأة على مقاس عواطفى . سأقول لك سرا بشرط أن تتوقفى عن البكاء ، لقد منعت كل الرجال من الوصول إليك بما فى ذلك الرجل الذى أحببته وأحبك لسبب بسيط وهون أننى أردتك لنفسى وكرهت أن يفوز بك أحد غيرى ، سمها غيرة جنونا خالقا يتعذب بسحر مخلوقته . إن أحدا غيرى لم يحبك كما أحببتك . نعم أحبك يا جميلة ، وهذه هى فرصتنا لأن يحقق هذا الحب بهجته واكتماله ، تعالى إلى حضنى ، دعينا نصنع فرحا يعوضنا كل تعاسة الماضى (يقترب منها ، يضمها إلى أحضانه ، وهى تجلس على الكرسى ، يقبل شعرها ووجهها ويديها.)

دعينى أقبل شعرك وجبينك ويديك ذات الصفاء والبهاء ، سنقيم عرسنا هذه الليلة يا أجمل جميلات الدنيا . (تتبدل إضاءة المسرح ، ترتفع أغنية الأعراس البدوية : " الرسول الهادى " تصحبها الزغاريد ، يشارك هو فى الغناء وقد وضع فوق ملابسه جلبابا وفوق رأسه طاقية حمراء لها زر طويل(

صلى الله على الرسول الهادى
الرسول انديشه

على عد ما خط القلم بالريشة . صلى الله..

(يتمايل وسط المسرح وهو يحمل قنديل العرس ومن حوله الزغاريد والغناء ، وموسيقى الغيطة والمقرونة وغيرها من آلات شعبية تستخدم فى الأعراس البدوية.)

جميلة ، حياتى ، روحى ، حبى ، أين أنت ؟ (لا يجدها)

لماذا تتركيننى ؟ إنها ليلة عرسنا ، ليلة انتصارنا على تقاليد البؤس وأكداس القبح ورياح القبلى وصحراء القحط والجفاف والعطش ، سوف نحمل قنديل عرسنا نطارد به ظلامهم ، سوف نغنى أغنيات الحب ونشهرها سلاحا ضدهم ، سوف ننتصر عليهم جميعا ، إننى صادق فيما أقول ، فتعالى إلى ، لا تختفى هذا الاختفاء الغامض ، إننى أحتاج إليك ، ضائع بدونك ، لا خلاص ولا نجاة لى إلا بك ، لأنه لا نجمة فى سمائى أهتدى بها إلا أنت ، ولا درب أسلكه إلا دربك ، ولا راية أحتمى بظلها إلا رايتك ، فلا تتركينى وحيدا.

(يطوف مناديا باسمها)

جميلة .. جميلة .. جميلة..

(يخرج باحثا عنها، مناديا باسمها. يعود يائسا. ينهار فوق المقعد .يرمى طاقية العريس ويطفئ قنديل الفرح. تتغير

الإضاءة. يرفع عينيه فيرى الرقيب واقفا فوق رأسه. ينظر إليه بفزع)

-الرقيب فى دارى مرة أخرى؟ هل لابد أن تنبثق فجأة أمامى مثل شياطين الظلام؟ ما الذى تريده مني؟ لا شك أنك أنت الذى طرد جميلة من داري. ألا تستحيى يا أخي؟ ألا تتركنى وشأني؟ ما الذى يضيرك فى أن أقيم عرسا مع امرأة أنا الذى خلقتها من لحمى ودمي؟ هل يضيرك ذلك فى شيء؟ ولماذا أحتاج إلى موافقتك فى مسألة شخصية لا تهم أحدا غيرى وغير المرأة التى اخترتها شريكة لحياتي؟ أحتملتك رقيبا على كتاباتى ولكن حياتى الشخصية شيء آخر. يجب أن تفهم هذا جيدا. لا أيها السيد. لكل شيء حدود. لن أسمح لك أن تتصرف بحياتى كما تشاء، فلا أحب إلا ما تريد أن أحبه. لا أقرأ إلا ما تريد أن أقرأه. لا أسمع إلا ما تريد أن أسمعه. لا أكتب إلا ما تريد أن أكتبه. لا أتزوج إلا من تريد أن أتزوجها. لا. أننى لم أكتب تنازلا عن حياتى لأحد. ولن أبيع روحى لأحد أو أسمح له باسترقاقي. أما مهنة الكتابة فأنا مستقيل منها منذ اليوم. سئمت يا أخى من الرقص على النغمات التى تعزفها الأجواق التابعة لكم ، هل تريد أن ترغمنى على مواصلة الرقص ؟ وتريده اليوم أن يكون رقصا حقيقيا لا مجرد مجاز

واستعارة ، رقص يعنى رقص ، ما هذا ؟ أهو إذلال لى ؟ وما هى الموسيقى التى ستعزفونها هذه المرة ، أراهن أنها موسيقى النشيد الوطنى - ها. ها. ها تعجبنى روح السخرية لديكم. اختيار يليق بذوقكم العظيم. إنك أول رقيب يتخلى عن تجهمه وجموده ويتكلم بلغة الدعابة والفكاهة.

(ضاحكا) إذن فهى أغنية السح الدح أمبو

(بلهجة أكثر ذعرا)

طبعا أنت لا تتكلم جادا هل تريد حقا أن ترانى أرقص لك. وأرقص على هذه الموسيقى التى اخترتها أنت؟ ألا تملك حدا أدنى من الخجل من الحياء يمنعك من مثل هذا السلوك معي..

(وبطيئا تبدأ أغنية "السح الدح امبوا" ثم يرتفع الصوت تدريجيا)

(صائحا) لا. لن أرقص. افعل بى ما تشاء. سوف لن أرقص. اضربني. عذبني. خذنى إلى محاكمك وسجونك فلن أرقص.

سوف أعرف كيف أدافع عن نفسي.

يا سيدى الرئيس ويا حضرات المستشارين.

(تتركز عليه بقعة من الضوء وهو يترافع عن نفسه)

يتهمنى السيد الرقيب بأننى أعصى أوامره وأتمرد عليها. فهو يرى نفسه فى هذه الوظيفة ممثلا للقوانين والأعراف والتقاليد والقيم التى عينه المجتمع حارسا عليها. قال : إن القيم والمثل والأخلاق هى احتكار له وحده، فسلمت له بذلك دون نقاش. قال، حرمت عليك الكتابة فى المواضيع السياسية، فأدرت وجهى عن كل الحرائق التى يشعلها السياسيون والحكام فى بيتى ولم أتحدث عنها.

قال : دع عنك الحديث فى شئون الدين، فاعتبرت أن ملكوت السماء صار جزءا من أطيانه وعقاراته وتنازلت له عن حقى فى النظر إلى السماء. قال : لا أريد منك إشارة واحد إلى قضايا الجنس-، فاعتبرت يا سيدى الرئيس ويا حضرات المستشارين، أن الجنس شيء لم تكتشفه البشرية بعد، وأن الأطفال يهبطون فى سلال من السماء. قال : ستحل عليك لعنتى لو تكلمت عن صراع الطبقات، أو صراع الأجيال، أو صراع المصالح، أو أى صراع بين فئات المجتمع، فمحوت من قاموسى كلمة "الصراع" ولم أستخدمها حتى وأنا أتحدث عن كائنات الغابة، أو عناصر الطبيعة، أو أسماك المحيطات.

لم ترضه جميع هذه التنازلات يا حضرات المستشارين، فأتى محتجا لأننى استعملت كلمة القنديل أو الشفق

أو الفجر، أو الليل، أو العاصفة أو السنبلة أو الوردة وهى كل ما تبقى لى من كلمات فى قاموس الأدب الذى يهرب من الحديث عن قضايا الناس طلبا للنجاة، وأعتبر أنها رموز لأفكار تهدد أمن وسلامة الوطن، فأردت الصمت والامتناع عن الكتابة إرضاء له، لكنه أبى أن يرضى، بل رأى فى انسحابى من ميدان الكتابة خيانة للوطن والأمة.

إنه لا يريدنى أن أصمت ولا يريدنى أن أتكلم.

لا يريدنى أن أكتب

ولا يريدنى أن أتوقف عن الكتابة،

وفوق هذا كله جاء أخيرا يطالب بأن تكون حياتى الخاصة أيضا ملكا له، فلا أفعل شيئا إلا بمشيئته. وكأنه لا يكفى يا سيدى الرئيس ويا حضرات المستشارين أن الواحد منا يأتى إلى الدنيا دون أن يختار أباه وأمه، دون أن يختار اسمه أو طول قامته، أو شكل شعره أو لون عينيه وجلدته، يأتى دون أن يختار الوضع الاجتماعى لأسرته أو الوطن الذى ينتمى إليه أو الطائفة التى يحمل أوزارها، دون أن يختار الملعقة التى تكون فى فمه، من ذهب أو من خشب. دون أن يختار العصر الذى يولد فيه، أو السرير الذى يولد فوقه، أو النجم الذى يحدد مسار حياته. دون أن يختار إن كان سيرث مجدا أو عارا، لقبا ملكيا

أو مرضا يفضى به إلى المصحات العقلية، كأنه لا يكفى الواحد منا كل هذا، أو ما يلقاه فى انتظاره عندما يولد من مؤسسـات أقامها المجتمع، وتقاليد تركها أسلافنا الموتى، وأساليب عمـل وفكر وسلوك تحدد للإنسان اختياراته فى الحياة. حتى يأتى هذا الرقيب ليغتصب الهامش الضئيل الصغير الذى تبقى لإنسـان مثلي،بعد أن كتبت كل الصفحات بالنيابة عنه، ويسلب منه آخر حقوقه كإنسان. فهل يرضى عدالتكم ما يفعله بى هذا الرقيـب، هل يرضيكم أن يصادر عقلى وفكر وكلماتي، ثم يأتى ليحدد لى ماذا آكل وماذا أشرب وماذا ألبس ومتى أنام ومتـى أسـتيقظ يحدد لى كيف أكره وكيف أحب وكيـف أتكلـم أو أغنـى أو أرقص أو مشى فى الطريق، كيف أفرح أو أبكى أو أتوجع أو أتألم أو أصرخ ؟

(صوت حركة وضجيج، يبدو وكأن أحدا يجـره إلـى خارج المسرح وهو يقاوم)

أرجوكم. اتركونى أكمل مرافعتي. هذا ليس عدلا.

هذا افتـراء علـى القـانون، أيهـا القضـاة. أيهـا المستشارون.. أيها......

(يضيع صوته وسط نشيد "يا ظلام السجن خيم،

إننا نهوى الظلاما .

لحظة إظلام. ثم يضاء المسرح فارغا. يدخل الكاتب وكأنه شخص آخر. يمشى بطريقة مضحكة. يسير فى مقدمة المسرح جيئة وذهابا، يضرب يدا بيد، ويضحك كالأبلة)

-يا ولاد الكلب. وماذا قال؟ نأخذك إلى دار العروسة. ويا لها من عروسة يحتفظ بها السيد الرقيب لأدباء الأمة ومفكريها..

(يغني)

يا عروسة يا عروسة، يا عروسة ويا عريس، مثل ليلة الجمعة دائما، هى نهار الخميس. لالي. لالا، لالا............

(يتوقف عن الغناء)

آه يا ظهري، وهل لابد أن تكون السياط منقوعة فى الملح يا كفرة.

طبعا أرقص. والآن لن أختار إلا أغنية السح الدح أمبوا، أرقص عليها. إننى أرفض أية أغنية أخرى. لا عربية ولا عالمية، لا حديثة ولا قديمة، لا موسيقى تصلح لى بعد اليوم إلا السح الدح أمبو.

(يعلو صوت الأغنية، فى حين يرقص وهو يردد مقاطعها)

-السح الدح امبو

السح الدح امبو
الواد طالع لأبوه.

(ينتبه إلى خطأ لغوى فى الأغنية فيقف ليصحح الخطأ)

يا أخى الصحيح أن نقول لأبيه، وليس لأبوه، فهو جار ومجرور، ولا يجوز فى مثل هذه الأغنية التى صارت نشيدا وطنيا للأمة العربية كلها أن نخطئ فى النحو.

(يرتفع من جديد صوت الأغنية . يعاودا الرقص وترديد الغناء)

-السح الدح امبيه
-الواد طالع لأبيه
-يا عينى الواد بيعيط
-إن كان عطشان اسقيه!

(يتوقف عن الغناء. يأخذ قلما وورقة ويقف منحنيا بإذلال فى حضرة الرقيب.)

هل يرضيك هذا الرقص أيها السيد الرقيب... أحمد الله أن رقصى أعجبكم. والآن ماذا تأمر سيادتك. سوف لن أكتب إلا ما تمليه أنت، سطرا سطرا، وكلمة كلمة وحرفا حرفا.

حسنا، إن كنت ترى المهمة شاقة فأعطنى الفكرة وسأتولى صياغتها بالنيابة عنك، تماما كما تعطى الوصفة إلى

الخياط أو الحداد أو النجار. ألا يرضيك هذا ؟ هل تقول بأنك صرت تثق بى وستحضر سكرتيرة تكتب لى بعد أن صرت تابعا لك. إنك تغرقنى بأفضالك. سأحاول أن أكون دائما عند حسن ظنك. سأجعل التواصل الروحى بينى وبينك يطل إلى درجة أن أتلقى الأفكار منك مهما تباعدت بيننا المسافات، فلا أكتب إلا ما يفرحك ويرضيك.

ستسمح لى يا سيدى الرقيب فى هذه الحالة أن أنتقل إلى دورة المياه.. لأنه كما قلت لكم لأستطيع أن أجد الإلهام إلا وأنا فى بيت الأدب.

(تدخل إلى المسرح طاولة عليها آلة كاتبة وموديل فتاة تكتب على الآلة. يذهب إلى المرحاض نسمع صوت الحركة داخل المرحاض. صوت السيفون والكاتب يملى كلماته من داخل دورة المياه، فى حين يرتفع صوت الآلة الكاتبة)

عيناك أيها الرقيب .
تاك ، تيك تاك
(صوت السيفون)
غابتا نخيل ساعة السحر
عيناك أيها الرقيب .
تيك تاك ، تيك تاك.

(صوت السيفون)
شرفتان راح ينأى عنهما القمر.
لولاك أيها الرقيب .
تيك تاك ، تيك تاك
ما غردت قبرة على الشجر
تيك تاك ، تيك تاك ، تيك تاك
ولا بللت الحقول حبة من المطر
تيك تاك ، تيك تاك
لولاك ما اعشوشبت الأرض أو تفتق الزهر
لولاك أيها الرقيب
تيك تاك تيك
لامحات عقولنا ، تكلست كأنها حجر....
حجر ،حجر ، حجر
تيك تيك تيك
شجر ، شجر ، شجر
مطر ، مطر ، مطر
تكلمى أيتها الضفادع
وغردى أيها الغربان
وأنشدى يا بومة الخرائب

أنشودة السفر..

سفر ، سفر ، سفر...

(صوت السيفون. يخرج مهرولا من المرحاض وهو يزرر بنطلونه)

-لا . لا اشطبى الأسطر الأخيرة التى تتحدث عن البوم والضفادع والغربان. لم يكن التواصل جيدا بينى وبين فكرا السيد الرقيب .... ضعى بدلا منها:

-لولاك ما غنى البشر

-لولاك ما رن الوتر

-لولاك....

-هنا تقولين أننى أقتبس من الشعراء الكبار وأعبث بقصائدهم. هل تعترضين على أفكار السيد الرقيب. إننى لا أكتب لا بوحى منه ، فحذارى من بطشه وفتكه . والآن اكتبى هذا النشيج وأرسليه إلى كل مدارس الوطن العربي، لكى تغرس فى نفوس النشء الجديد، حب السيد الرقيب.

-نهارك سكر وليلك حليب

يا سيدى الرقيب .

تيك تاك ، تيك تاك

-يا أيها البعيد

يا أيها القريب
تيك تاك ، تيك تاك
-يا غائبا وحاضرا ، وحاضرا وغائبا
يا أيها الحبيب
تيك تاك تيك تاك
-يا بدرا لا يغيب

(يغنيها بإيقاعات راقصة، تصيبه حالة هستيرية، يتشنج وهو يرقص ويغني؟ ثم ينهار باكيا فوق الأرض)

(يستمر فى البكاء بصوت عال)

-لماذا يحدث لى كل هذا؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

(تتغير الإضاءة، تنهمر طرقات قوية على الأبواب والجدران والسقف والنافذة . تملأ المسرح أصوات الأبواب التى تتحطم والأقدام التى تدق أرض البيت)

-من أنتم؟ ماذا تريدون مني؟ لماذا تقتحمون بيتى وتتهجمون علي؟ لعلكم القتلة الذين أرسلهم الشاعر كعبورة . إننى لم أفز والحمد لله بجائزة نوبل إلا فى الحلم. إنها مجرد أوهام. قولوا له ذلك. وقولوا له أيضا بأننى أول من يعترف بحقه فى الجائزة. إنه أكبر شاعر فى عصرنا. قولوا له ذلك . وقولوا له بأننى سوف لن أحلم بهذه الجائزة بعد اليوم. إذن فأنتم

لستم القتلة الذين أرسلهم . ولكن لماذا تهددونني؟ هل تقولون بأنكم شخصيات قصصية أنا الذى أوجدتها. هذا واضح جدا. أستطيع أن أدرك ذلك الآن. أنت عثمان الغول. لقد كنت شهما وطيبا. كنت شجاعا وأنت تواجه "الذئاب". وأنت عامر أبو ليله، والد هندا وشيخ الوادى الأخضر، وأنت البدوى جابر، صائد الغزلان. ولكن ماذا تريدون مني؟ هل تقولون أنكم تخجلون من الانتساب إلى . وأننى جللت حياتكم بالعار وجعلتكم هزءا وسخرية أمام الشخصيات القصصية الأخرى فجئتم للانتقام مني؟ لأننى لم أتصد للسيد الرقيب. وهل تعلمون من هو السيد الرقيب؟ ألا تعلمون أن وراءه سجونا ومعتقلات ومؤسسات بوليسية وعسكرية، فى حين أننى إنسان بسيط أعزل لا أملك إلا قلمي. فلا تظلمونى أرجوكم. لا تصدروا أحكامكم قبل سماع أقوالي. دعونى أقول لكم كلمة أخيرة قبل أن يهبط الستار على حياتى الأدبية.. لقد كتبت قصصا ومسرحيات ومقالات وأنتم تعرفونها فلا حاجة بى إلى مزيد من الحديث عنها. ولكن عندما تتحدثون عنى فى الرسائل التى تكتبونها إلى أصدقائكم، اكتبوا عن كاتب أحب أهله جميعا، وأراد أن يكون نافعا لهم مخلصا لرسالة القلم ، ولكن قوى كثيرة لا تعرف العمل إلا فى الظلام، كرهت أن ترى قنديلا مثله، يبحث عن

ظلام لضوئه، فأرسلت رياحها العاتية تطفئ جذوته . إننى أعرف هذه القوى، وسأفضحها أمامكم ليس هناك ما أخافه بعد اليوم، وسأكشف لكم عن كل الأشخاص الذين يديرون المؤسسة الظلامية الوحشية التى تغتال العقل وتقتل الفكر والإبداع، سأذكرهم بأسمائهم الصريحة فردا فردا ، وأول هذه الأسماء:

(تعلو ضجة الموسيقي، تطفأ أضواء المسرح، تضاء أضواء الصالة ويبدأ قفل الستارة)

أرجوكم لا تقفلوا الستارة. لاتطفئوا الأضواء وأنتم وأنتم أيها المتفرجون الكرام، لا تتركوا مقاعدكم خائفين، أرجوكم أن تبقوا هنا لكى نكشف تلك القوى، نفضحها، ندينها، نحرر أنفسنا من سطوتها وهيمنتها، أرجوكم.. أرجوكم ..

(يظلم المسرح تماما وتقفل الستارة وتعزف موسيقى الختام)

النهاية

كاتب لم يكتب شيئا مواجهه للذات وللواقع القمعي

بقلم : نسيم مجلى

قدمت "فرقة المسرح الحديث" بالبيضاء عرضا جيدا من حيث النص والإخراج والتمثيل. ولا شك فى قيمة هذه المشاركة الليبية فى مهرجان القاهرة الدولى الرابع للمسرح التجريبى. وأن تأتى هذه المشاركة الفنية فى هذا الوقت بالذات لهو أمر بالغ الدلالة، إذ يثبت أن الشعب الليبى قادر على اختراق المضروب حوله.

فهذه الأعمال المسرحية "المرتجلة" و "كاتب لم يكتب شيئا" تقول للعالم بلغة فنية حميمة، أن الشعب العربى الليبى الذى جاهد فى سبيل الخروج من عصور التخلف والقهر والاستعمار، بوسعه أن يساهم مع شعوب العالم الأخرى فى بناء عالم جديد يسوده العدل والسلام.

وسوف أقصر حديثى هنا على عرض مسرحية "كاتب لم يكتب شيئا" لأننى لم اتمكن من مشاهدة عرض "المرتجلة".

ومسرحية "كاتب لم يكتب شيئا" كانت مفاجأة طيبة غير متوقعة وقيمة هذا العرض الحقيقية مستمدة أساسا من النص المكتوب الذى وضعه الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه. وهو

كاتب ليبى معروف، متمرس على فن كتابة الرواية والقصة والمسرحية. وله فى المجال حوالى عشرين كتابا.

والنص يمثل محاولة جزيئه للتعبير عن معاناة كاتب عربى مع الرقابة وعوامل الأخرى المتمثلة فى تراث الفكر الرجعى والممارسات القمعية. وقد توافق جهد المخرج وفنان الديكور والإضاءة فى تحقيق هذا الأثر الطيب الذى حققه العرض. كما كان لأداء الفنان، إبراهيم إدريس، لدور الكاتب وقع حسن، يؤكد أنه فنان موهوب يملك القدرة والتلقائية على تلوين انفعالاته وصوته وإبراز مشاعر المعاناة والفرح والسخرية بصورة مقنعة.

أما النص المسرحى فلابد من وقفة طويلة معه لنحلله ونفهمه. فهو نص ينبع من واقع يعيشه المبدعون جميعا فى العالم. وهذه سمة هامة لأن التجريب الحقيقى إنما هو مغامرة فنية لاكتشاف الواقع ومواجهته. ومن ثم فإن هذا العمل يدخل فى باب التجريب المشروع. بعكس الأعمال الغامضة والمبهمة أحيانا والتى تعتمد التجريد الكامل أو حركات الرقص والجمباز.. فهى فى رأيى لا تنتمى لمجال المسرح

الذى قام تراثه الخالد عبر الحضارات كلها على أساس الكلمة.

من هنا كان احتفالى بهذا العمل الجديد الذى كتبه الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه. وهو يقع فى شكل المونودراما أو أقرب الأشكال إلى المونودراما التى يقدمها ممثل واحد، هو الذى يقوم بدور الكاتب هما. وهو كاتب يعانى من الإحباط الشديد فلا يقوى على الكتابة... فى ظل رقابة قمعية تحاصره من كل ناحية. وهو يحاول الهروب عن طريق الحلم أو اجترار الذكريات أو استدعاء بعض شخصيات قصصه. ويتجسد كل هذا فى سلسلة من المشاهد المنفصلة فى عالم الفنتازيا الذى يجمع بين الحلم والكابوس، وبين الكاتب والرقيب من وقت إلى آخر.

وإيقاع العمل يحكمه عاملان أو حركتان أساسيتان متواليتان ومتناقضتان: حركة ايجابية تصدر عن الكاتب كمحاولة للهروب من القهر وتتمثل فى الحلم وتداعى الذكريات الجميلة أو استدعاء بعض أبطال قصصه. فهو هنا فاعل يمارس دور الخالق المبدع الذى يتحكم فى مصير الشخصيات. وحركة أخرى سلبية تتمثل فى حضور الرقيب

الذى يفرض وجوده فى غرفة الكاتب فى اللحظات الحاسمة ليحبط كل مسعى للهروب أو الإبداع وبهذا يفسد كل اللحظات الجميلة التى تلوح فى هذا العالم المخيف.

والمسرحية تبدأ بهذا الحلم الذى يتلقى فيه الكاتب مكالمة هاتفية من استكهولم تخبره بأنه فاز بجائزة نوبل للآداب، ويعلن موافقته على استلام الجائزة، وفى الحال تبدأ الهواجس تساوره، فيطلب من محدثيه أن يحموه من المنافسين الآخرين له وهو يوسف إدريس وادونيس اللذين سوف يعملان على قتله.. وربما قتل جميع أعضاء الأكاديمية الملكية بالسويد. ولا يكاد يسمع طرقات على باب غرفته حتى يحس أن القتلة قادمون فيقفز من النافذة. وتزداد الإضاءة سطوعا لتعلن عن تغير المشهد فدرى الكاتب مستلقيا على دراسة فى فنه القصصى. وأنه ما أن يبدأ فى مطالعيه حتى يداهمه النوم. ولا نعرف أنه قد أفاق من النوم ومن الحلم إلا حين يخرج ليعد لنفسه فنجانا من القهوة على السخان، ويبدأ فى الكلام من خارج المسرح، ليسخر من أوهامه وأحلامه بقوله:

انتهت كل المشاكل ولم تبق إلا أوهام جائزة نوبل، أعارك أشباح الظلام من أجلها (يعود ليمسك بالكتاب) أليس من

واجب الكاتب أن يؤلف كتبا قبل أن يحلم بالفوز بهذه الجائزة؟ كيف يستقيم الأمر إذن وأنا لا أستطيع أن أكتب ولا أعرف كيف أكتب أو ماذا أكتب. ثم يستغرب كيف وجد الأدباء العرب وقتا لكتابة الأدب وهم يشتغلون معلمين وصيادلة ومهندسين زراعيين ومخبرين صحفيين.

ثم تتداعى الذكريات. فنعرف أنه لا يملك اختيارا فى اكتساب الموهبة الأدبية. فهذه الموهبة قد ولدت معه. فقد كان يسمع همس الطبيعة من حوله ومن فوقه. كان يسمع كلاما تقوله الريح ومواجع تقولها الجبال يسل. ولكن ماذا يعمل والأدب لا يطعم خبزا؟

فكر فى أن يحذو حذو نجيب محفوظ الذى فاز بجائزة نوبل. ولم يتفرغ للأدب إلا بعد أن أحيل للمعاش. فاشتغل مثله فى وزارة الأوقاف.

لكنه لا يملك صبره ولا قوة احتماله، فشعر بالاغتراب، وترك الوظيفة.. وعاش متمسكا جائعا فى الشوارع دون أن يهتم بذلك، أو يخشى على ضياع فرصته فى الزواج أو تركه للأهل والأصدقاء فقد نذر نفسه لرسالة الأسلاف العظام

الذين غرسوا شجرة الحضارة وسقوها بإبداعهم أدبا وفنا وفكرا. أى أنه اختار رسالة الكتابة.

وشطح به الخيال، فرأى نفسه خالقا مبدعا قادرا على أن يسرق النار من جبال الاوليمب ويدفئ بها قلوب البشر. وأن يأتى بما لم يستطعه الاوائل على حد قول المعرى. فيعقد المحاكمات للملائكة والآلهة والبشر ويحدد لهم مصائرهم. بل إنه يستطيع أن يحكم على زيوس، كبير الأرباب، وأن ينزله من عليائه، هذا هو التحدى الذى يواجه الأديب فى نظره.

لكنه يترك زيوس جالسا ويتنقل إلى مقدمة المسرح ليسرد بعض ذكرياته. ومنها نعرف أنه تعلم الكتابة مبكرا وهو طالب بالمدرسة الداخلية، تعلمها فى المراحيض. فقد كانوا يطفئون أضواء عنابر النوم فيهرب للمراحيض يقضى فيها جزءا كبيرا من الليل يقرأ ويكتب، ولعل هذا هو السبب الذى جعل العرب يطلقون على المرحاض "بيت الأدب".

ولما كان محرما عليهم سماع الأغنيات العاطفية، ولا يسمح لهم إلا بالأغانى الوطنية فقد كتب لنفسه نشيدا خاصا بمدرسته يقول فيه:

عليك منى السلام يا أرض أجدادى

ففيك طاب المقام وطاب إنشادى

وحين كان يسمعه الحارس الليلى يردده فى المرحاض يأتى ليطرده ويطفئ الأضواء ومن هنا بدأ الحصار والمطاردة.

فالاجهزة القمعية لا تطارد تاجرا أو نجارا أو طبيبا أو مهندسا.. أو تقتله بسبب مهنته.الكاتب فقط تقتله لأنه كاتب. وهى تبدأ بالمطاردة أولا ثم بالمحاكمة. "ماذا نقصد بالشفق الأحمر الذى جعلته عنوانا لقصتك؟ " لو قرءوا القصة لعرفوا ماذا يقصد. وإنما اكتفوا بتفسير العنوان على أنه دعوة لثورة دموية حمراء.

ولماذا سمى نفسه قنديلا يبحث عن ظلام لضوئه؟ ألا يعنى هذا تأثره بالأفكار المستوردة وانحيازه لأعداء الوطن ورغبته فى إفساد عقول الشباب. ويعجز عن مقاومة والرد المقنع، فيطلب من الرقيب أن يقدم له لائحة بالمواضيع التى يسمح له بالكتابة فيها والمفردات التى يمكنه أن يستخدمها.

ويأتى الرد:"إن كل ما تكتبونه ملغوم، مدسوس، مليء بالدسائس والفخاخ، وهنا يدرك الكاتب أن الاعتراض ليس على ما يكتب بل على مبدأ الكتابة أساسا، فيطلب الإذن له

بالتوقف عن الكتابة، ويرفض الرقيب هذا الطلب لأن الصمت نوع من الاحتجاج والتمرد يعطى أعداء الأمة العربية فرصة لأن يقولوا أن أدباء الأمة وضميرها مضربون عن الكتابة. لم يبق أمامه إذن سوى أن يمشى فى الشارع هاتفا:

تعيش الرقابة تموت الكتابة

ويتغير المشهد ويعود الكاتب إلى نفسه ليكشف أن المشكلة ليست فى الرقيب فقط."وإنما مشكلتى مع نفسى ومع تراث القمع الذى أحمله معى. إنه حقا يسكن دمى، ويقيم تحت جلدى، وينام هنا بين أطباق مخي".

إن الكاتب يضع أصابعه هنا على أصل المشكلة وبيت الداء. فالقمع ليس مسألة عارضة أو مستحدثة. بل تراث موروث من مئات السنين نرثه أبا عن جد. فهو قسمة مشتركة بين أبناء هذه الأمة حاكما ومحكوما، لا نستطيع منه فكاكا. وهو الذى يفسد أسلوب الحوار بيننا ويحيله شباكا للوقيعة والاصطياد بدلا من أن يكون وسيلة للتفاهم والوصول إلى الحقيقة..

وعلى هذا يبدأ الكاتب فى توبيخ نفسه لأنه انهار أمام الرقيب ولم يقاوم. فالكاتب الذى ينصب المحاكمات لآلهة

الشرق والغرب يقف متخاذلا جبانا أمام الرقيب. فما أبشع التناقص. فكيف يكون موقفه أمام محكمة التاريخ؟

أخيرا لا يجد مفرا من تقريع الذات والهرب من الحصار إلا باستدعاء جميلة، بطلة رواية "حقول الرماد"

التى تفنن فى إبداعها وإضفاء أعظم صفات الجمال والبهاء عليها، ثم وقع حبها حتى إنه حرمها من الزواج من الشاب الذى كانت تحبه، لأنه يريدها لنفسه زوجة.

ولا تكاد تبدأ أغنية الاعراس البدوية فى زفة العروسين حتى تختفى جميلة. ويضاء النور فجأة فلا يجدها. فيطفئ قنديل الفرح ليخرج باحثا عنها. وفجأة يرى الرقيب أمامه.

ويعرف أنه مطلوب ألا يفعل شيئا حتى الزواج إلا باختبار الرقيب ويرفض أن يتدخل الرقيب فى حياته إلى هذا الحد ويعلن استقالته من الكتابة. وهنا تبدأ عمليات السجن والتعذيب والمحاكمة. ويعجز عن الدفاع عن نفسه.

إن الكاتب فرد أعزل لا يملك سوى قلمه. أما الرقيب مؤسسة قمعية مدججة بالأسلحة وآلات التعذيب. وعند هذا الحد يعلن انصياعه الكامل لأوامر الرقابة. فلا يتكلم فى

السياسة ولا فى الدين ولا يشير إلى الجنس أو صراع الطبقات أو أى صراع آخر.

فتبدل الحال فتعين له سكرتيرة للكتابة على الآلة الكاتبة ويذهب هو إلى المرحاض ليملى كلماته من هناك "وهى عبارة عن غزل ومديح للرقابة وللرقيب.

والأغنية تقول:

يا سيدى الرقيب نهارك سكر ولياك حليب

وهى محاولة جادة لكشف هذا الواقع المؤلم بكل قسوته.. وهى محاولة موفقة تضافرت لها كثير من عناصر النجاح. ولا ينقص هذا العرض إلا إبراز الفارق بين مشاهد الواقع الذى يحال فيها هذا الكاتب ذاته وواقعة وبين لحظات الفنتازيا أو مشاهدها.. وقد لاحظت أن هذه النقطة غير محسوبة بوضوح كاف فى النص.

فلا تكاد تدرى إن كل ما يحاول العرض إثباته أن الكاتب يعيش فى عالم الكتب وهو عالم كله وهم فى وهم وهو ما تشير إليه النص أحيانا لكنه لا يلبث أن يخرجه من هذا العالم

ليعمل القهوة مثلا أو الذهاب إلى المرحاض.. حيث كنا نتلقى كلمات إلى عالم الواقع وراؤه...

وهذه كلها مآخذ بسيطة لا تقلل من قيمة هذا العمل الممتع الجميل، الذى أحيا فينا الأمل فى مزيد من الأعمال الليبية الجديدة والناجحة. فقد قدم الكاتب محاولة جزيئه، وتغلب المخرج فرج أبو فاخرة على كثير من الصعوبات، واهتدى لحلول مرضية. فقد جعل من مكتب هذا المؤلف إطارا عاما للعروض وغلفه بهذه الستائر الشفافة، ليكشف من ورائها عن طريق فن السلويت والإضاءة عن الاشباح التى تحاصر المكان، وتقوم بعمليات التعذيب. كما وفق فى اختيار فريق الممثلين الذين ساهموا بتعاونهم فى نجاح هذا العمل. تحية لكل من ساهم فى تحقيق هذا النجاح .